

التودّد للناس من علامات المؤمن



قال ﷻ تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ﷻ لَدُنْتُمْ لَهُمْ وَالْوُدَّ كُنْتُمْ فَوَظَّاءً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوهُمِنْكُمْ وَرَأَيْكُمْ كَمَا يَكُونُ أَوْ يَنْتَظِرُونَ لَهُمْ وَمَنْ يُوَدِّعْهُمْ فَوَدِّعْهُمَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ﷻ إِنَّ ﷻ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران/ 159).

إنّ بعض الناس يتّصفون بالغلظة والشدّة والفظاظة والخشونة في تعاملهم، بما يُسبّب نفور الناس منهم، والآية أعلاه توضح ذلك بشكل جليّ. فلو كان النبيّ (صلى ﷻ عليه وآله وسلم) فظّاً غليظ القلب، لانفضّ المسلمون من حوله، ولمّا تمكّن من نشر دعوة الإسلام فيهم. وفي مقابل الفظاظة، نلاحظ أنّ بعض الناس يتصرّفون مع الآخرين بمسايرة تصل إلى حدّ المداهنة التي أكّدت بعض النصوص سلبيّتها، وسوء فاعلها، فعن الإمام عليّ (عليه السلام): «شرُّ إخوانك مَنْ داهنك في نفسك، وساترك عيبك». وما يشترك مع المداهنة في سوء التعامل السيّد، هو التملّق الذي عرفّه الإمام عليّ (عليه السلام) بقوله: «الثناء بأكثر من الاستحقاق ملق»، وعنه (عليه السلام): «ليس من أخلاق المؤمن التملّق».

ومن جانب آخر، إنّ اتّصاف الإنسان بالفتنة أمر جيّد ومستحسن، إنّما الكلام في دُسن الفتنة في كلّ

الأُمور، فهل من الأفضل للإنسان أن يكون ذا فطنة ودقّة ونباهة في جميع أنحاء علاقاته مع الآخرين؟ من الواضح أنّ التعامل مع الآخرين بحدّة ودقّة في جميع المجالات هو أمر مُتعب لكلا الطرفين، لذا وردت عن أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) النصيحة بإعطاء هامش للتغافل، والتسامح في العلاقة بالناس، فعن الإمام الباقر (عليه السلام) في وصيّته: «واعلم، يا بنيّ، أنّ صلاح شأن الدُّنيا بحذاقها في كلمتين: إصلاح شأن المعاش ملاء مكيال ثلثاه فطنة، وثلثه تغافل».

إذاً الفطنة وإن كانت قد تحصل من دون فظاظة، وأيضاً هي مقابل التملُّق والمداهنة، إلا أنّ الإسلام وضع العناوين الأربعة في خانة السلب المطلق أو النسبيّ، كما لاحظنا، ودعا إلى عنوان خامس هو المداراة أو التودّد.

إنّ المداراة المطلوبة في الإسلام، والمدعوّ إليها هي المسايرة التي لا تتجاوز الحقّ، وإلا فإنّها تتحوّل إلى المداهنة المبعوضة، وهذا ما أرشد إليه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «رأسُ العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس في غير ترك حقّ»، فإن وقفت عند حدود الحقّ كانت رأس العقل، وعنوانه، كما في الحديث الوارد عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «عنوان العقل مداراة الناس».

وتأتي ثقافة الإسلام لتربّي المسلم على أن يتعامل مع المسلمين جميعاً كأنّهم أهل بيته، فيسائرهم ويداريهم، كما يسائر ويداري أقرباءه الرحميّين، وهذه القاعدة منطلق للدعوة إلى التحبّب إلى الناس، فعن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): «رأس العقل بعد الإيمان بالله عزّ وجلّ التحبّب إلى الناس»، وعن الإمام عليّ (عليه السلام): «إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بطلاقة الوجه، ودُسن اللقاء».